الفصل الرابع

شخصيات هوميروس

١ ــ الآلهة

كان آلهة اليونان يختلفون عن البشر فى أنهم خالدون، تراهم دائماً فى عنفوان الشباب لا يبلغهم الكبر، الذى كانوا يكرهون لأنه مملوء بالمتاعب والأشجان،(١) وكانوا ينحدرون من جنس خاص له صفات مميزة: وجوه جميلة متألقة، وقوام رشيق ممشوق وهيئة جليلة رهيبة، وقوة خارقة وذكاء نادر(٢). وكانوا يقيمون فوق ذرى الأولومپوس فى سماء صافية مشرقة لا تعصف بها ريح ولا ينزل بها مطر (٣)، يعيشون فى قصور فخمة بناها هيفايستوس من الذهب والمرمر، وكانوا يتركونها أحياناً لينزلوا على الأرض أو ليذهبوا إلى قمم إدا (٤). وكانوا يقضون أوقاتهم فى بشر وسرور لا تعكر صفوهم الهموم ولا تصيبهم الأحزان، ولا يهتمون بمشكلات البشر ولا يكترثون لحالهم، وإذا تناقشوا فى أمر من أمورهم أو اختلفوا من جرائهم لا يطول نقاشهم ولا يدوم خلافهم لأنهم أخوة متحابون وأصدقاء متآلفون. ولقد وصف هوميروس المحبة التى تؤلف بين قلوبهم

---

(١) النشيد الهومرى لأفروديتا: ٢٤٤.

(٢) النشيد الهومرى لديميتر: ٢٧٥ وما بعده؛ الأوديسا: ٦: ١٠٧.

(٣) الاوديسا: ١٥: ٥٢٣.

(٤) الإلياذه: ١١: ١٨٢.

وتخفف من حدة التوتر بينهم ، فروى لنا فى نهاية النشيد الأول من الإلياذه ان سيد الأرباب وعد أم أخيليوس بالانتقام ممن أساءوا إلى ابنها وأن هيرا استاءت من تصرفه ولامته عليه ، ولكنه نهرها وأغلظ لها القول ، فسكتت وكظمت غيظها ، وغضب الأرباب وثاروا من أجلها ، غير أن هيفايستوس تدخل فى الأمر ووفق بين والديه . فحل الوئام محل الخصام وساد الصفاء وأشرقت الوجوه وعلا الضحك ، ثم أقيمت مأدبة فاخرة بهيجة ترددت فيها الأغانى وعزفت الألحان حتى أرخى الليل سدوله ، وعندئذ ركن الآلهة إلى الراحة والهدوء ، وذهب زيوس مع زوجه إلى فراشه الناعم الوثير . ولقد قام هؤلاء الآلهة بدور خطير فى أشعار هوميروس ، فكانوا يتدخلون فى كل شىء يؤيدون الأبطال أو يخذلونهم ، فإليهم كانت تعزى الانتصارات والهزائم لأنهم كانوا يوجهون القواد ويتحكمون فى تصرفاتهم ، يزجون بهم إلى حروب لا تنتهى ، فزيوس هو الذى يرسل إريس ، إلاهة الشقاق ، إلى المعسكرات لتثير الجند وتحفزهم على القتال ، (١) وآريس ، إله الحرب ، هو الذى يشرف على المعـــارك ويراقب سيرها ويخضعها لأهوائه ونزواته ، (٢) .

وكان يطيب لهؤلاء الآلهة أن يتجلوا ليخدعوهم أو ينصحوهم أو ينشروا الفضيلة بينهم (٣) . وهكذا نرى زيوس يأمر إله الأحلام بالذهاب إلى أجاممنون ليضلله ويسخر منه ، فيتوجه الإله إلى خيمة القائد ويظهر له فى صورة صديقه نستور يحثه على القتال ويغريه بنصر وهمى لا يتحقق (٤)

---

(١) الإلياذه : ١١ : ٥ — ٦ .
(٢) الإلياذه : ٥ : ٨٣١ .
(٣) الإلياذه : ١٧ : ٤٨٥ — ٤٨٧ .
(٤) الإلياذه : ٢ : ١ — ٤٠ .

ونرى أثينا تتجلى لتليماخوس فى شكل منتور وترافقه فى رحلته لتذلل له الصعاب التى تصادفه (١) . ومع أن الآلهة كانوا يختلفون عن البشر فى طبيعتهم لكنهم كانوا يتصفون بكثير من صفاتهم . فكانوا يحبون الولائم ويكثرون من المآدب ، يسرفون فى الطعام والشراب ويتهافتون على اللهو والمجون ، ينساقون وراء شهواتهم ويستسلمون لغرائزهم ، وكان منهم قساة لا يرحمون وطغاة ظالمون .

وكان زيوس سيد الأرباب ورئيساً لمجلسهم ، وكانوا يخافونه ولا يحترمونه ، ولكنهم يطيعون أوامره لأنه أقواهم وأشدهم بأسا ومع أن كلمته كانت العليا وطاعته واجبه إلا أنه كان يخضع بدوره لقوة القدر(٢) (moira) ويستسلم لقضائه الذى لا مرد له ، وكان زيوس يستشيره فى كثير من الأمور ويخضع لمشيئته ، فهو الذى كان يقرر مصير الجيشين المتحاربين وهو الذى قضى بموت هكتور ومنع زيوس من انقاذه رغم عطفه عليه (٣) ، وهو الذى أمر بوسيدون أن يعفو عن أودوسيوس ليعود إلى وطنه (٤) .

وأشهر أرباب الأولومپوس عند هوميروس ، هيرا ، بوسيدون ، آريس هيفايستوس ، ديميتر ، ابوللون ، أرتميس ، أثينا ، افروديتا ...

ونكتفى بالكلام عن اثنين منهما فقط : ابوللون وأثينا (٥) .

---

(١) الأوديسا : النشيد الثالث كله تقريباً .

(٢) ولو أن هوميروس أحيانا يعتبر زيوس والقدر شيئاً واحداً ويعزو إليهما نفس الاختصاصات ، الإلياذه : ١ : ٥ ؛ الأوديسا : ١١ : ٥٦٠ .

(٣) الإلياذه : ٢٢ : ٢١٣ .

(٤) الأوديسا : ٥ : ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٥) اخترنا هما لأنهما لعبا دوراً هاما فى الإلياذة والأوديسا ولانهما من أشهر الآلهة وأخطرهم شأناً .

أما ابوللون فكان أعظم الآلهة بعد زيوس ، كان يشرق على الكون وينيره ، وكان يقيم مع ربات الشعر ويرأس ندواتهن ، يعزف على القيثار ويلحن الأنغام ، يعالج المرضى ويشفيهم ، يعلم الغيب ويلقن النبوءات . فهو الشمس والنور ، وهو خالق الشعر والموسيقى وهو إله الطب وعلام الغيوب .

كان يبدو دائماً فى عنفوان الشباب ، بهى الطلعة ، رشيق القوام مفتول العضلات قوى البنيان ، تغنى هوميروس برجولته فوصفه بأنه أقوى الآلهة وشبه صوته بالرعد وقال إن أبطال اليونان كانوا يخافونه ويفرون أمامه عند أسوار طرواده حيث أمطرهم وابلا من سهامه القاتلة وأنزل عليهم طاعونا فتاكا أهلك ألافا من رجالهم وأضعفهم أمام أعدائهم الذين ناصرهم ودافع عن قادتهم وضمد جراحهم ووقف إلى جانب بطلهم هكتور وتفانى فى مساعدته وحاول إنقاذه من الموت ، ولكنه فشل فى التغلب على مشيئة القدر .

ولكن ابوللون كان يكره الحرب بطبيعته [1] لأنه لم يخلق لها ولكنه وجد لينفع الناس فاخترع لهم الآلات الموسيقية وعلمهم العزف عليها ، وكان يحب الموسيقى ويجيد عزفها لدرجة فائقة ، « فكان يسحر الناس بفنه ويؤثر على الطير بانغامه ويحرك الحجر بألحانه » .[2]

---

(١) الأمر الذى جعل بعض النقاد يقللون من شأنه فى خوض معاركها ويتهمونه أحياناً بالجبن فى ميادينها ، انظر : Robert (F.), Homère, p. 135

(٢) الإلياذه : ١ : ٦٠٣ ؛ ٢٤ : ٣٠ .

وكذلك أطلع الناس على المستقبل وكشف لهم أسرار الغيب ، فكانوا يحجون إلى معابده ليستشيروه فى شئونهم الخاصة والعامة ويطلبوا اليه حلولا لمشكلاتهم ، فكان يجيبهم على لسان كاهن (أو كاهنة) من كهنته ينطق برد الإله ويفسره لهم . وكان معبد دلفى أشهر معابد أبوللون ، يفد إليه اليونان من مختلف الأقطار يعرفون منه نبوءات خطيرة كثيرا ما أسدت لليونان نصائح سياسية جليلة وقررت مصير رجالاتهم .

وكان لأبوللون رسالة سماوية أخرى وهى معالجة الأبدان وتطهير النفوس ، فكان يشفى المرضى من عللهم ويطهر نفوس المذنبين من آثامهم بأن يساعدهم على التكفير عن ذنوبهم ويهديهم الصراط المستقيم وينقذهم برحمته من عذاب الضمير .

أما أثينا فكانت ابنة زيوس العزيزة ، انبثقت من رأس أبيها تحمل درعها وأسلحتها الذهبية وتلوح بحربتها الحادة اللامعة ، وكان ميلادها حدثا رهيبا فزلزلت الأرض واهتزت السماء وسجد الآلهة خاشعين لرمز الطهر والعفاف ، إلاهة الحكمة والذكاء ، ربة الشعر والفنون ، خالقة الناى ، نصيرة العلم والأدب ، بالاس اثينا ، أحب بنات زيوس اليه ، خصها بقراءة الغيب ووهبها القدرة على إطالة حياة من تشاء من البشر . بالاس أثينا الإلاهة الباسلة التى كانت تشترك فى المعارك وتحارب فى الصفوف الأولى (promachos) نراها فى الإلياذة إلى جانب اليونان توفق بين زعمائهم وتجمع شملهم ، وكلما خارت قواهم وفترت همتهم نفخت فيهم من روحها المتأججة وملأتهم حماسة ووعدتهم بالنصر المبين ، وكانوا يعملون بنصحها ويستأنفون القتال ، وكانت بدورها تخوض معهم المعارك وتتجلى لقوادهم فى أحرج المواقف

وتشد أزرهم وتنصرهم على أعدائهم ، فتجلت لديوميديس فى ساعة رهيبة وأمرته بمواجهة آريس والصمود له ، فصمد البطل وظلت تشجعه حتى رمى الإله بسهم نافذا اخترق جسمه وأذل كبرياءه . ولم تكتف أثينا بهذا النصر بل أصرت على ملاقاة آريس بنفسها ، والحقت به هزيمـــة أخرى فى معركة الآلهة[١] لأنها كانت تكره هذا الإله المجنون الذى لا يثبت على حال ،[٢] « آريس الذى يفكر فى الحروب والمعارك[٣] ويسبب الخراب والدمار[٤] ولا يعرف الحق أبداً[٥] » .

أما هى فكانت لا تدخل الحروب حبا فيها ولكن دفاعا عن المدن وحماية لأهلها ، كانت تنصر الحق دائمـــا وتقف إلى جانبه ولا أدل على تمسكها به وتأييدها له من الدور الخطير الذى قامت به فى الأوديسا . لقد بذلت قصارى جهدها فى نصرة المظلوم ومحو اليأس من نفسه وبعث الطمأنينة اليه وتقوية الأمل عنده والأخذ بيده ودرأ الأخطار عنه ، فعاونت تليماخوس وأمدته بالسفن والمؤن وشجعته على الرحيل للبحث عن أبيه ورافقته فى رحلته ، وتجلت لأمه وطمأنتها عليه ، وساعدت أباه فى الرجوع إلى إيثاكا واشتركت معه فى القضاء على أعدائه ونشر السلام فى بلاده .

ولا عجب فى موقفها من بطل الأوديسا لأنه كان يشبهها كما اعترفت بذلك فى حديثها معه إذ تقول : « إنك تفوق الناس والآلهة فى المكر والدهاء ! يا من

---

(١) الإلياذة : ٢٠ : ١ — ٧٤ .
(٢) الإلياذة : ٥ : ٨٣١ ، ٨٦٩ .
(٣) الإلياذة : ٥ : ٨٩٠ .
(٤) الإلياذة : ٤ : ٤٣٩ .
(٥) الإلياذة : ٥ : ٧٦١ .

تحب الاكاذيب ولاتكف عن الحيل ، ألاتريد ، حتى فى إيثاكا ، أن تضع حدا للخداع والتمويه والكذب الذى يتأصل فى نفسك ويستولى عليك ؟ ولكن دعنا من هذا الالتواء ، فكلانا بارع فى الكذب الذى ينفع ولايؤذى، فأنت أرجح الناس عقلا وأفصحهم لساناً وأنا أكثر الأرباب ذكاء وأخصبهم خيالا وأقواهم ابتكارا . أولم تعرفنى بعد؟ پالاس أثينا بنت زيوس التى تساعدك وتنقذك من المصائب[1] ،

ولم تقتصر مساعدتها على الأبطال فقط بل كانت ترعى المدن وتحميها ، وكانت أثينا عاصمه اتيكا ، أحب بلد إلى قلبها ، تنافست مع پوسيدون على تسميتها ، ولما فازت عليه سمت المدينة بأسمها ، فاصبحت هذه مركزا رئيسياً لعبادتها ، شيدت لها المعابد[2] الرائعة ، وصنعت لها التماثيل الجميلة[3] واقامت لها الحفلات العديدة والأعياد العظيمة[4].

---

(١) الأوديسا : ١٣ : ٢٩١ وما بعده .

(٢) أروعها البارثنون أى معبد العذراء .

(٣) اشهرها تمثال ارتفاعه ٣٩ قدما صنعه فيدياس من الذهب والعاج .

(٤) الباناثنيا الكبرى وكانت تقام مرة كل خمسة أعوام والباناثنيا الصغرى وكانت تقام مرة كل عام .

٢ — الأبطال

رأينا أن هوميروس ، عند ظهوره ، وجد تراثا هائلا من الأناشيد والمقطوعات استمد منه موضوع قصائده ونقل عنه كثيرا من أبطاله ؛ وسواء أكان هؤلاء الأبطال أشخاصاً حقيقيين قاموا بأدوار تاريخية أم كانوا مجرد أبطال خرافيين ابتكرهم الخيال الشعبي [1] ، فلقد عرفهم الشعراء من قبل وصوروهم فى أناشيدهم ثم جاء هوميروس وأبقى عليهم وحافظ على مظهرهم الخارجي ولكنه غير صفاتهم تغييـــرا وبدل تصرفاتهم تبديلا ليقوموا بأدوار لانرى لها مثيلا إلا فى الملاحم الخالدة مثل الإليـاذة والأوديسا .

ويجدر بنا ، قبل الكلام عنهم ، ان نشير إلى أن كلمة بطل كانت لاتعنى مطلقا أن صاحبها يشبه الآلهة أو يتصف بقوة سماوية أو يتميز بصفة نادرة بل كانت لقبا يطلقه الشـاعر على اليونان والطروادين دون تميز ، ويصف بها كل من يتقن عمله ويبرع فى فنه ، فهاليثرسيس (Halithersès) بطل فى العرافة ، وديمودوكوس بطل فى الإنشاد ، والجنود كلهم أبطال ، فالكلمة لا تحمل أى معنى من معانى التقديس أو التأليه ولاتدل على أنه كان لصاحبها هيكل خاص يعبد فيه أو كانت تقام له عبادة حول قبره شبيهة بعبادة الموتى .

حقاً إن اليونان عبدوا أبطالهم وقدسوهم ولكن هذه العبادات وجدت

---

(١) Leaf (W.), Homer & History, London, 1915, PP.1-35.

قبل هوميروس بوقت طويل ثم اختفت فى العصر الهومرى وظهرت بعد ذلك بعدة قرون (١) وهكذا مرت عبادة الأبطال بأطوار عدة . فعبدهم اليونان فى عصور ماقبل التاريخ ثم زالت عنهم صفتهم المقدسة عندما ارتقى التفكير العلمى وظهرت الفلسفة فى أيونيا الزاهرة حيث عاش هوميروس وصورهم تصويراً يتفق مع أفكار معاصريه . ولما خلدت الملاحم أعمالهم وذاع صيتهم كان من الطبيعى أن يعود اليونان لعبادة أبطالهم لأنهم كانوا كسائر الناس فى كل زمان ومكان ، يميلون إلى تأليه أبطالهم بعد الموت .

ومهما يكن من أمر فان اختلاط الآلهة بالأبطال عند هوميروس لايزيل الفروق بينهم « وكفى أن أرباب السماء خالدون وأن أهل الأرض زائلون وبذلك لايتشابهون أبدا » (٢)

ويعتبر أخيليوس أعظم الأبطال جميعا ؛ قام بأهم دور فى الإلياذة وكان مسئولا عن كل ماحدث فيها : عن الأحزان التى انتابته والخسائر التى نزلت بالفريقين المتحاربين . فهو أهم أشخاص الملحمة وأشجع ابطالها ، لامثيل له ، بدونه لايستطيع اليونان إحراز النصر ، عندما غضب أسرعوا إلى استرضائه ، ولما اعتزل أحسوا بحاجة ماسة اليه ، إنه محور الإليـــاذة «عنده تتجمع خيوطها وحوله تدور حوادثها وبفضله يزداد دائماً تماسكها وتقوى وحدتها» (٣)

ولقد نجح هوميروس فى تصويره تصويرا يليق بدوره العظيم فجعله

---

(١) Robert, Homère, p. 185.

(٢) Leaf, op. cit., p. 11.

(٣) Symonds (J.), The Greek Poets, Vol., I. p. 92.

يشعر ببطولته ويعتز بنفسه ولا يقبل الإساءة ، اتخذه مثالا للجندى الشجاع الذى أحب الحرب فاستولت على افكاره وملأت كل حياته فلم يفكر فى الزواج ولم يتعلق بافراد أسرته . ترك أباه فى سن الصبا وغاب عنه وقتاً طويلا . ولم يحن إلى أمه لأنها لم تكن امرأة كسائر الامهات بل كانت حورية مقدسة لاتحتاج إلى عطفه وحنانه ، فهو على النقيض من غريمه هكتور الذى كان يحب زوجه وابنه ويبجل والديه . كان أخيليوس لا يعرف إلا معسكره ولا يعطف إلا على حارسه فوينكس ولا يحب إلا صديقه باتروكلوس الذى كان يقاسمه الهموم ويشترك معه فى القتال ، وكان حساساً سريع التأثر شديد الغضب ، عندما أهانه أجاممنون أصر على الانتقام منه وفكر فى قتله لولا أن تدخلت أثينا وثنته عن عزمه فكظم غيظه وانسحب إلى خيمته وترك قائد اليونان يكفر عن خطيئته . ومرت الأيام وتغيرت نظرته إلى الحياة ، فأصبحت الحرب لاتستميله والمجد الحربى لايغريه والغنيمة لا تستهويه والهدايا لاتؤثر فيه لأن الحرب ، فى رأيه ، غرم دائماً . غنائمها لاتعادل أخطارها وأرباحها لاتعوض حياة جندى واحد ، فالمال من السهل جمعه لكن الروح إذافارقت صاحبها لاتعود اليه ابدا[1] ، إذن يجب رد الرسل خائبين وعدم الاستجابة اليهم ورفض هداياهم ، لأنه متأكد من سلامة موقفه فلا لوم عليه إذا امتنع عن القتال أو رحل عن طرواده ، لكنه يفضل البقاء ليرى اليونان وقد ألمت بهم المصائب وأزلتهم الهزيمة ، وهذه نقطة سوداء فى موقفه . فكيف يشاهد القتلى والجرحى من مواطنيه ويبقى فى خيمته ؟ لقد تحجر قلبه وجمدت عيناه فاستحق لوم باتروكلوس الذى أخذ يبكى خجلا من تصرفات صديقه .

---

(١) الإلياذة : ٩ : ٤٠٦ وما بعده .

عندئذ يتغير الموقف تغيراً تاما لأن البطل كان يحبه أكثر من أبيه[١] ولا يستطيع أن يرفض له طلبا ، فسمح بالاشتراك له فى المعركه وأعطاه درعه وأسلحته وحث جنوده على القتال تحت قيادته ودعا زيوس أن ينصره ويرده إليه سالما ، لكن الإله لم يستجب لدعائه وجمعه فى حبيبه الذى لم يعد إليه أبداً ، وكان موته صدمة كبرى أنست البطل أساءة أجاممنون وحملته على الصفح والغفران ودفعت به إلى ساحة الحرب[٢] ليقتل هكتور[٣] وسرعان ما انقلب إلى وحش كاسر لا يشبع من سفك الدماء ولا يرحم من يراه ، يقتل كل من يصادفه حتى الأعزل الذى لا يهاجمه . لقد ثارت ثورته إلى درجة الجنون فلم تهدأ بعد قتل هكتور بل استبدت به وجردته من إنسانيته فأخذ ينكل بالجثة إمعانا فى الانتقام من صاحبها . لقد أصبح فى حالة يرثى لها ، ضاق بالحياة وصار لا يكترث بأى مجد فيها ، اعتراه وجوم شامل واستولى عليه صمت عميق ، ثم بدأ يفيق ويرجع إلى رشده شيئاً فشيئاً فعاد إلى انسانيته وكف عن التنكيل بغريمه وأكرم پرياموس واحترم شيخوخته ورد إليه جثة ولده العزيز وعندئذ هدأت نفس أخيليوس هدوءاً تاما فوافق على عقد هدنه ليتمكن الطرواديون من تشييع بطلهم المغوار .

وبذا تنتهى الإلياذة التى يمكن أن نسميها « ملحمة أخيليوس ، لأنه

---

(١) الإلياذة : ١٩ : ٣٢١ وما بعده

(٢) لذا وصفه دانتى فى الجحيم بأنه البطل « الذى أرجعه الحب آخر الأمر إلى ساحة الوغى »

(٣) رغم تحذير أمه التى قالت له : « إذا قتلت هكتور فسوف تلقى حتفك بعد وقت قصير » . — الإلياذة : ١٨ : ٩٤ — ٩٥ ؛ ولكنه رحب بالموت بعد مقتل حبيبه ورد قائلا : « فلأمت فى الحال مادمت لم أنقذ صديقى ، فلأمت ما دام قد هلك » . — الإلياذة : ١٨ : ٩٨ وما بعده.

يقوم فيها بالدور الأول ولأنها تصف عواطفه وانفعالاته ، تصف غضبه من أجاممنون وحبه لپاتروكلوس وحزنه عليه وانتقامه له وهدوء نفسه بعد إشباع رغبة الانتقام العاصفة .

تلك شخصية اخيليوس كما صورها هوميروس نموذجا لشباب اليونان الباسل الذين دمروا طرواده لتبقى مثلا لشعبهم يفاخرون به غيرهم ويقتفون أثره كما فعل الإسكندر الأكبر الذى اعتاد أن يحمل معه نسخة من الإلياذة « لأنها كنز يفيض بجميع الفضائل الحربية » . وعندما وصل إلى سهول طرواده زار قبر أخيليوس وجرى عاريا حوله وقدم القرابين تمجيدا لذكراه . وكان القائد الشاب يشبه أخيليوس فى قوة عواطفه وإنفعالاته ، فكان عنيفا فى حبه وكان عميقا فى حزنه ، أحب صديقه هيفايستيون (Hephaestion) حبا بالغا ، فلما مات أعلن عليه الحداد العام وأمر بذبح قبيلة بأسرها وتقديمها قربانا لروحه وامتنع عن الطعام والشراب وكف عن النوم ، ثم احتفل بتشييعه على طريقة أخيليوس فأقام الطقوس الدينية والحفلات الرياضيه وقدم القرابين . وكان الاسكندر كريما مع أعدائه يحترمهم ويعاملهم بالحسنى ، فرحب بزوجة داريوس وبناته كما رحب أخيليوس بوالد هكتور .

تأثر القائد المقدونى إذن فى كل تصرفاته بما ورد فى الإلياذة عن بطل اليونان الذى اهتم به الشاعر اهتماما بالغا وأسهب فى تحليل مواقفه وجعله مثلا أعلى للمحاربين يقارن به جميع الأبطال خاصة هكتور وأجاممنون .

فهكتور [١] جنـــدى شجاع لكنه يختلف عنه فى كل شىء ، فهو يحارب دفاعا عن طروادة لاحبا فى القتال ، يحارب لانقاذ وطنه وأسرته التى تطل عليه من فوق الأسوار وتفكر فيه دائما كما يفكر فيها . أما أخيليوس فكان يقاتل بعيدا عن بلده تفصله عنه « جبـــال شاهقة وبحار واسعة صاخبة [٢] » لذا كان عبوسا قاسى القلب لايرق إلا لپاتروكلوس ، لكن هكتور كان يعيش وسط أهله وخلانه الذين يبادلونه حبا بحب ، يذهب ، بعد كل معركة ، ليلاطف زوجه ويداعب ابنه أو ليزور هلينا الحزينـــة ويواسيها فى عزلتها لأنه كان ذا قلب رحيم يفيض رقة وحنانا ، وكان أقل جسارة وإقداماً من خصمه ، فلم يجرؤ على مواجهته مطلقا ولم يسيطر على المعركة إلا بعد أن انسحب منها ، فلما عاد إلى القتال ثانية ، ارتعدت فرائصه . لكن الدفاع عن الوطن واجب مقدس يفرض على هكتور ملاقاة العدو ومقاومته حتى ولو كانت يداه من نار وبأسه من حديد ،[٣] فليذهب إذن وليقف فى وجه أخيليوس ولكن عندما يراه مقبـــلا تخور عزيمته ويفر خائفاً ، ثم يسترد قواه ويصمد أمامه حتى يموت لقد كان شهما نبيلا يقى يفكر فى شعبه وأهله حتى النهاية فطلب من قاتله أن يسلمهم جثته وأخبره أنه كان يفعل ذلك لو انتصر .

ومع أن هكتور كان أقل شجاعة وبأساً من أخيليوس إلا أنه كان قائدا

---

(١) لم يهتم هوميروس بتصوير أحد من الطرواديين اهتمامه بهكتور فاكتفى بذكر أبطالهم الآخرين (أينياس ، سارپدون . . الخ) من غير دراسة أو تحليل . ويرجع ذلك إلى حرصه على إرضاء مستمعيه من اليونان وخوفه من خلق صور مكررة تشبه الشخصيات اليونانيه . انظر Bowra, op. cit., p. 208.

(٢) الإلياذة : ١ : ١٥٧ .

(٣) الإلياذة : ٢٠ : ٣٧١ — ٣٧٢ .

ممتازا قادرا على قيادة الجند وتشجيعهم ، يملؤهم حماسة ويدفعهم إلى القتال يؤنبهم عندما يستحقون التأنيب ويستشيرهم ويعمل بنصيحتهم [١] ، أما اخيليوس فلم يكن قائدا ماهراً لأنه كان ينهمك فى المعركة . وينصرف عن كل ما عداها ، يفكر فى النصر من غير أن يرسم الخطط أو يحفز الهمم .

وكان هكتور يختلف عنه أيضاً فى دينه وتقواه ، كان يؤمن بالآلهة ويحرص على استرضائهم ، لا يضحى لهم إلا بعد أن يتطهر ولا يقرب معابدهم إلا بعد ان يغتسل [٢] فإذا تشكك فى نبوءة سماوية ، فإنه لا يفعل ذلك لأنه لا يصدق ولكن لأنه يثق بزيوس ثقة عمياء [٣] .

وكذلك أجا ممنون كان يختلف عن اخيليوس ، فمع أنه كان قائداً عظيما إلا أنه لم يكن محاربا من الطراز الأول مثل ابن پليوس ، إنه كان من نوع هكتور ولو أن هذا كان يفوقه فى فن القيادة ، ذلك لأن القائد الطروادى كان يقود جيشاً متماسكا يدافع عن الوطن ضد عدوان أثيم ، وهذا أسمى هدف كان الطرواديون يريدون تحقيقه ، أما اليونان فكانوا لا يؤمنون بحرب يخوضونها ويصلون نارها من أجل زوجة فاتنة غادرة ، وهذا الشعور كان يقلل من حماستهم ويضعف من صفوفهم . لذا كانت مهمة أجا ممنون شاقة ومسئوليته جسيمة ، تتطلب مجهودا مضنيا كان يفقده السيطرة على أعصابه فيختل توازنه ويستبد بأتباعه أو يخضع لأهوائه ويركب رأسه ويتغطرس مع زملائه .

---

(١) الإلياذة : ٦ : ٣٣٣ ؛ ٣ ، ٥٩ .

(٢) الإلياذة : ٦ : ٢٦٦ .

(٣) الإلياذة : ١٢ : ٢٤٣ .

كان اجاممنون إذن أقل شجاعة من اخيليوس وأقل مهارة من هكتور، ولكنه كان يحتل معهما المنزلة الأولى فى الإلياذة، التى امتلأت بمواقفهم الرائعة وأعمالهم الخارقة».

ولم يكتف الشاعر بالكلام عن هؤلاء الأبطال فقط بل أحاطهم بشخصيات عديدة ابتكر معظمهم ابتكارا ونوع فى تصويرهم تنويعا فأصبحوا يختلفون فيما بينهم اختلافا شديداً، كل منهم يستقل بذاته ويتميز بصفاته مع انهم جميعا يقومون بنفس العمل ويؤدون نفس المهمة.

وهم فى مجموعهم قسمان: رجال حرب أو رجال سياسة؛ ويذكر فى طليعة المحاربين اياس وديوميديس ومنيلاوس، وفى مقدمة الساسة نستور وأودوسيوس.

اما أياس فهو جندى لايمتاز الا بضخامة بنيانه وقوة بدنه يشبه الأسد فى قوته والحمار فى عناده فهو شجاع محدود الذكاء يستعمل أسلحة من طراز هائل، درعه كالبرج وحربته طولها اثنتان وعشرون ذراعا[١]

أما ديوميديس فكان مثلا حيا للقائد الشاب، جريئاً غير هياب، يتقدم إلى المعركة كالنهر المتدفق لا يستطيع أن يقف فى وجهه احد[٢]. كان أول من قاد المعركة بعد انسحاب اخيليوس، قاتل الطرواديين بشدة ولم يتردد فى مهاجمة أنصارهم من الآلهة.

أما شخصية مينلاوس فكانت أقل قوة وإن كانت أكثر أهمية لأنه شقيق القائد الأعلى وزوج هلينا الفاتنة؛ ولكنه كان، رغم أهميته، بائسا مسكينا، فلا رأى له ولا اهتمام به لأن خيانة زوجته أضعفت

---

(١) الإلياذة: ٧: ٢٦٨.

(٢) الإلياذة: ٥: ٨٧.

شخصيته وجردته من إرادته فسخر منه الأعداء ولقبوه « بالمحارب الناعم أو الجندى الرقيق »[١].

أما نستور فكان سياسياً حنكته تجارب الماضى الذى كان يتعلق به ويشيد برجالاته ويكثر من ترديد أسمائهم . كان سديد الرأى عميق التفكير ، وكانت نصيحته تلقى من السامعين أذانا صاغية وقلوباً ترضى بها وتطمئن إليها . فنستور هو الذى حمل أجاممنون على طلب الصفح من اخيليوس واسترضائه بالهدايا لأنه أخطأ فى حقه وكان عليه أن يعتذر . ونستور هو الذى عمل على إرجاع اخيليوس إلى المعركة بعد أن شرح الموقف لباتروكلوس ورجاه أن يقنع صديقه بنسيان الإساءة وتلبية النداء. ولكن نستور كان ، رغم رجاحة عقله ، يثير السخرية أحيانا ، ولعل هوميروس قصد إلى ذلك ليجعله إنسانا مثل كافة البشر ، كثير الكلام ، محباً لتقديم النصح والإرشاد فى أتفه المسائل ، مغرماً بالتحدث عن الماضى والإكثار من سرد القصص ، فعندما يتوجه باتروكلوس ليسأل عن ماخاءون الجريح ويحاول رؤيته على وجه السرعة ، يستوقفه نستور ويروى له حكاية قديمة لا نهاية لها ، وعندما يظهر فى حفل الألعاب الذى أقيم لتعظيم باتروكلوس قبل دفنه ، نراه ينصح ابنه ويحدثه حديثاً طويلا منمقا عن سباق العجلات ويشرح له كيف يستطيع إحراز النصر ولو بجياد غير أصيلة ، ثم يشترك ابنه فى السباق ولكنه لا يفوز بالجائزة .

أما أودوسيوس فكان يمتاز بذكاء نادر ومهارة فائقة فى مواجهة المواقف المختلفة والمآزق المحرجة ، اشتهر برجاحة عقله وبراعة خططه لذا

(١) الإلياذة : ١٧ : ٥٨٨ .

اعتاد قواد الحملة أن يعهدوا إليه بأصعب المهمات ، فهو الذى أخذ على عاتقه إرجاع خروسيس إلى أبيها كاهن ابوللون ، فتوجه إليه ورد إليه ابنته وأقام عنده الطقوس الدينية التى كان يتطلبها الموقف ونجح فى أداء مهمته ، وهو الذى ذهب إلى اخيليوس ليستعطفه ويسترضيه . حقا انه لم يوفق فى تحقيق مهمته ولكنه كان بارعاً فى التحدث بلسان أجاممنون والتعبير عن أفكاره ووصف حالته .

وكان ذكاء أودوسيوس يقتصر أحيانا على ابتكار حيلة أو الإلتجاء إلى خديعة ، فعندما يصارع أياس الغبي يهمس فى أذنه ويطلب منه أن يستسلم ويعده بأنه سيمثل نفس الدور ، فيصدقه أياس ويسمح له بأن يصرعه ويلقيه أرضا ، فلما ينهض يتبين خديعة أودوسيوس الذى اخلف وعده وسخر منه .

ولقد حاول شاعر الإلياذه أن يشعرنا بأن لهذه الشخصية منزلة خاصة فى نفسه وأن صاحبها قريب من قلبه ، فنظم الأوديسا ليتغنى ببطولته ويمجد أعماله ، يقوم البطل فى هذه الملحمة بالدور الأول وهو دور إنسانى بكل معانى الكلمة ، يصور لنا رجلا يحب ويتألم ، يقاسى الأهوال وتنزل به المحن فيصمد لها ويصبر عليها من غير يأس واستسلام ، ولقد حاول هوميروس أن يجعل أودوسيوس نموذجا صادقا ومثلا خالداً لليونانى الناضج ، فوصفه بالحذر وبعد النظر وميزه بالذكاء وسرعة الخاطر وخصه بالمثابرة والصبر وغرس فى نفسه حب الأهل والتعلق بهم ، فلم تشغله عن زوجه إلاهة فاتنة (مثل كالوپسو) [١] أو ساحرة عاشقة (مثل كركى Circé) [٢] أو أميرة

---

(١) الأوديسا : ٥ : ١٤٨ — ٢٢٧ .

(٢) الأوديسا : ١٠ : ٢٧٤ — ٤٠٥ .

رائعة (مثل ناوسيكا) [١] ، ولما حاولت الإلاهة أن تفتنه وتغريه على البقاء رفض قائلا : « كالوپسو ، ايتها الإلاهة المقتدرة ، لا تغضبى منى ، فأنا أعلم تماما أن پنيلوپا الحكيمة ليس لها جمالك ولا رشاقتك لأنها فانية . أما أنت فخالدة لن يصيبك الموت أو الكبر ، ومع ذلك فإنى أرغب دائماً فى العودة إلى دارى وأتمنى يوم الرحيل ويوم الإياب » [٢]. فما أشد إخلاصه لزوجته وما أعظم حبه لوطنه الذى كان يفكر فيه دائماً ، لم تشغله عنه « جنات كالوپسو الناضرة بأنهارها الجارية وأزهارها اليانعة وثمارها الدانية » [٣] لقد ضاق بهذا النعيم وسئم الحياة فيه « فكان يقضى يومه جالساً فوق الصخور أو على رمال الشاطىء ، وقد انفطر قلبه من الحزن والأنين والبكاء » [٤] وظل على هذا الحال أعواما طويلة حتى عاد إلى وطنه ، وفور وصوله نسى آلامه وغمره سرور عظيم فانهال على تربة ايثاكا يقبلها ورفع يديه إلى السماء داعيا الآلهه أن تطيل بقاءه وترعى ابنه وتساعده فى التخلص من أعدائه ليعمل على إنعاش الجزيرة ونشر السلم فى ربوعها .

---

(١) الأوديسا : ٨ : ٤٥٨ — ٤٦٩ .

(٢) الأوديسا : ٥ : ٢١٥ ومابعده .

(٣) الأوديسا : ٥ : ٦٠ — ٧٥ .

(٤) الأوديسا : ٥ : ١٥٥ وما بعده .

٣ ـ النساء

عنى هوميروس بتصوير المرأة وحرص على أن تحتل فى شعره منزلة سامية ، فحدثنا عن نساء ذائعات الصيت ، وأسند إليهن أدواراً هامة ، أوقل أهم من أدوار بعض الأبطال ، فهلينا فى الإلياذه أخطر شأنا وأقوى شخصية من عاشقها باريس وزوجها مينلاوس ، واندروماخا مثل رائع للزوجة المثالية وپنيلوپا فى الأوديسا لا تقل أهمية عن زوجها .

اهتم الشاعر بتصوير هؤلاء النساء وتحليل شخصياتهن واسهب فى الكلام عنهن وعن مثيلاتهن خاصة فى الاوديسا[١] التى نظمت ، فى رأى بعض النقاد، لتمجيد المرأة [٢] بعد أن نظمت الإلياذه لتمجيد الرجل . ومهما يكن من أمر هذا الرأى فإن كل بطلات هوميروس جديرات بالدراسة لكن أشهرهن ثلاث : هلينا واندروماخا وپنيلوپا .

كانت هلينا أجمل نساء العالم القديم ، عشقها كل رجال اليونان وتغنى بحسنها كل أدبائهم الأصدقاء منهم والأعداء [٣] . فليس بعجيب إذن أن

(١) لذلك يرى بعض النقاد أنها من نظم شاعرة ، أنظر ،

Mackail (J. W), Penelope in the Odyssey, Cambridge, 1916,p.6

(٢) لا شك أن المرأة تلعب دوراً مهماً فى الأوديسا وأن النساء المشهورات فيها أكثر من الرجال لكن ذلك لاينهض دليلا على صحة هذا الرأى ، انظر :

Mackail. ibid.

(٣) انقسم الأدباء قسمين : فريق يدافع عنها ويثنى بجمالها وفريق يهاجمها ويندد بأخلاقها ، انظر :

Khafaga (M.S.), 'Absolutio Helenae. The Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XIV, Part, I May 1952.

تنشب الحرب وتدمر طرواده من أجل جمالها ويقاسى الفريقان الأهوال بسببها كما اعترف بذلك ملك طرواده وشيوخها [١] .

ولقد برع هوميروس فى تصويرها ، فبدت لنا شريفة طاهرة لأنه أمسك عن ذكر خطيئتها وامتنع عن وصفها ولم يشرح لنا كيف تم اختطافها وهل رحلت مع باريس لأنه فتنها أم أعرضت عنه فاغتصبها ، لقد التزم الشاعر الصمت ولم ينطق كلمة سوء ضدها بل دافع عنها دفاعا مجيداً واقنع زوجها بأنها بريئة غير مذنبة فاعترف منيلاوس بأنها لم تسء إليه وأدان باريس واعتبره مسئولا عن الجرم الذى وقع [٢] . وبنيلوبا نفسها ، رمز الطهر والوفاء ، كانت تعتقد أنها لم تكن تفكر مطلقاً فى خيانة زوجها لولا أن إلاهة عبثت بقلبها واضرمت فيه شهوة مخزية » .

كانت هلينا إذن غير مذنبة لأن افروديتا هى التى أسكرتها بخمرة الحب وأعمت بصرها ، فلما أفاقت من نشوتها ندمت على فعلتها وأخذت تصف نفسها بأبشع الصفات [٤] وأصبحت تتمنى الموت بعد رحيلها وتفكر فى العودة إلى وطنها والرجوع إلى زوجها وطفلتها وتقول « ياليتنى قد هلكت عندما جئت إلى طرواده وهجرت زوجى وتركت ابنتى » [٥]

ولقد نجح الشاعر فى أن ينسينا كل ما أساء إلى سمعتها ويقنعنا بحسن

---

(١) الإلياذة : ٣ : ١٥٦ وما بعده : « يجب ألا نحزن إذا قاسى الطرواديون والآخيون الآلام بسبب امرأة مثلها ، جميلة المحيا شبيهة بالآلهة » .

(٢) الإلياذة : ٣ : ٢٩ ؛ ٣٥١ — ٣٥٤ .

(٣) الأوديسا : ٢٣ : ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٤) الإلياذه : ٣ : ١٨٠ ؛ الأوديسا : ٤ ، ١٤٥ .

(٥) الألياذة : ٣ : ١٧١ وما بعده .

سيرتها فأظهرها فى آخر نشيد من اناشيد الإلياذه وصورها تصويراً جميلا فبدت سامية العواطف ، رقيقة القلب ، حزنت على هكتور ورثته بعبارات تدل على صدق شعورها وتعبر عن تقديرها له : « هكتور ، يا أعز أشقاء باريس إلىّ ، إنى لا أذكر لك كلمة نابيه أو لفظا لاذعاً ، وإذا لامنى أحد من أفراد القصر كنت تتصدى له وتمنعه بكلامك الحلو ونصحك السديد ، لذا انوح حزناً عليك وأبكى على نفسى لأننى مسكينة بائسة لن أجد بعدك صديقاً يرعانى ويعطف علىّ »[1]

حزن عميق هادىء وعرفان بالجميل من غادة وقور لا من فاتنة لعوب ، من هلينا التى قارنها هوميروس بالاهة الطهر أرتميس[2] وارجعها فى الأدويسا إلى بيت زوجها فحقق رغبتها التى استبدت بها بعد اختطافها .

وكما تغنى شاعرا الإلياذه بجمال هلينا وسحرها ، فإنه خلد اندروماخاوا شاد بحبها لزوجها وابنها فأصبحت رمزا للزوجة المثالية والأم الرءوم . لم يحدثنا هوميروس عن جسمها ولم يسهب فى الكلام عن أخلاقها وتركها تؤثر فينا بأعمالها وتطبع فى نفوسنا صورة لا ننساها . كان هكتور يحبها ويفكر فيها دائماً ، كان يسعى إليها قبل كل معركة ليودعها ، وكانت كلما رأته طلبت إليه أن يعدل عن القتال لأنها كانت تخاف عليه وتقول له : « يا إلهى إن الحماسة ستقضى عليك ، انك لا ترأف بى ولا بإبنك ، سأفقدك عندما يقتلك اليونان ، ولكنى أفضل أن تنشق الأرض وتبتلعنى قبل أن تموت ، لإننى لن أجد متعه فى الحياة من بعدك ولن أعرف إلا الحزن والألم ، لقد فقدت بى وأمى ، فأنت ياهكتور أبى وأمى ، وأنت زوجى ، اشفق على اذن

---

(١) الإلياذة : ٢٤ : ٧٦٧ وما بعده .

(٢) الأوديسا : ٤ : ١٢٢

وابق معى ،[1] ولكنه لا يستجيب لتوسلاتها لأنه بطل طرواده الذى يدافع عنها ويحميها ولأنه زوج اندروماخا الذى يحبها ويفديها ويفضل أن يموت دفاعا عنها على أن يحيا ويراها أسيرة عند اليونان ، لذا يرد عليها قائلا : « زوجتى إن كلامك يحزننى لكن قلبى يدفعنى إلى المعركة ، لقد تعلمت ان أكون شجاعا على الدوام وأن أقاتل فى الصفوف الأولى لأذود عن ملك أبى وأشيد مجـــدى ، ومع ذلك فأنا لا أفكر فى مستقبل طرواده وأحزانها . بقدر ما أفكر فيك عندما تقعين فى الأسر وتذرفين الدمع وتضطرين للعيش فى بيت أحد الآخيين تنسجين له وتحملين الماء ، فيراك الناس ويقولون: انظرها هى زوجة هكتور أعظم من حاربوا حول أسوار طرواده — ، وعندئذ تتجدد أحزانك وتشعرين بحاجتك لزوج مثلى يدفع عنك ذل الاستعباد »[1]

وتحققت نبوءته ! فمات بينما كانت تأمر بإعداد حمام ساخن له ليغتسل بعد المعركة ، أمرت وصيفاتها وجلست تغزل وتنتظر عودته ولكنه لم يعد أبداً ... وسمعت عويل هيكوبا ونحيبها وسمعت بكاء وصراخاً عالياً يأتيها من فوق الأسوار ، فخارت قواها وأصابها دوار ولكنها تحاملت على نفسها وأسرعت إلى هناك واطلت فرأت حبيبها جثة هامدة تجرها الخيل ، فأصابها ذهول وغابت عن نفسها ، ثم استردت أنفاسها واسترجعت قواها لترثى زوجها وتقول : « ما اشقانى ياهكتور ! ليتنى لم أولد ، لقد ذهبت إلى عالم الموتى وتركتنى فى يأس وقنوط ، وهذا الطفل الذى رزقناه ! حتى لو نجا من هذه الحرب المريرة ، فإنه لن يعرف السعادة أبداً ، ستنزل به المصائب وسيغتصبون أرضه بعد أن أصبح يتيما ذليلا . وإذا احتاج شيئاً ذهب

---

(١) الإلياذة : ٦ : ٤٠٦ وما بعده .

إلى أصدقاء أبيه ، يمسك هذا من معطفه ، ويشد ذاك من ثوبه ، فيتأثرون لحاله ويتصدقون عليه بما يبل شفتيه ولا يسد رمقه . آه ! ما أشقاه أستيناكس Astyanax ، ذلك الطفل الذى كان يجلس على ركبتى أبيه ولا يأكل إلا الضأن ونخاعه وكان ينام بين ذراعى مرضعته فى فراش وثير !! »[1] .

تلك لوحات رائعة هادئة تصور لنا أندروماخا ، وهى ، رغم قلتها ، عميقة الأثر لأنها تحلل نفسية هذه الزوجة تحليلا مفصلا وتعبر عن مشاعرها تعبيراً صادقا وتصف تفانيها فى حب زوجها وإبنها ، لقد حاولت مراراً منع هكتور من الذهاب إلى ساحة الوغى لأنها كانت تخاف على حياتها ، فلما ضاعت توسلاتها سدى لم تعد تملك إلا الدعاء له فلما فجعت فيه بكته بكاءً مراً ، لكن الفجيعة لم تنسها التفكير فى مصير ولدها فازدادت همومها عندما تصورت ما ينتظره من بؤس وشقاء ، وبذا قضت أيامها الباقية فى حزن وألم ، تنوح على الزوج المفقود وترثى لحال اليتيم المحروم فصارت مثلا للتفانى واعتبرها النقاد « أكثر نساء هوميروس نبلا وأقواهن تأثيراً واحبهن إلى النفس »[2] .

وليست پنيلوپا أقل جلالا إن لم تكن أكثر أهمية لأنها بطلة الأوديسا وأخطر نسائها شأنا « وأشدهن تألقا وأرجحهن عقلا »[1] . تظهر فى أول نشيد ولا تفارق مخيلتنا لحظة ، « فإذا اختفت عن أعيننا ، مرطيفها أمامنا وأثر فينا تأثير النغمات الموسيقية ، وكلما تعمقنا فى الموضوع شعرنا بأهمية دورها وسعة حكمتها »[3] . وهى تشبه اندروماخا فى حبها لإبنها ووفائها

---

(١) الإلياذة : ٦ ، ٤٤٠ وما بعده .

(٢) الإلياذة : ٢٢ ، ٣٧٨ وما بعده .

(٣) كلما ذكرها هوميروس فى الأوديسا وصفها بالحكمة الزائدة (periphron) والتألق الشديد (dia)

لزوجها الذى أضطر إلى تركها فى ريعان الشباب وعاد إليها وقد قاربت الأربعين ، وبذلك قضت زهرة العمر محرومة من كل سعادة وهناء : حبيبها غائب عنها وإبنها طفل رضيع ومسئولياتها جسيمة ، فعليها أن تقوم بأعمال زوجها وتشرف على شئون بيتها ، وبعد ذلك تقضى أوقات فراغها مع طيورها (١) لأنها لم تجد لها صديقة تشكو إليها همها ، وبقيت وحيدة تحسب الأيام والسنين وتعيش بالأمل ولكن لما انتهت حرب طرواده ولم يعد أودوسيوس دب فى نفسها يأس مميت وضاقت بالحياة لأن العشاق بالغوا فى مضايقاتهم لها ، وزاد الموقف تعقيداً نضوج إبنها وبلوغه سن المراهقة فأراد أن يثبت وجوده وبدأ يتحدى سلطتها ويخرج عن طاعتها .

لكن هذه المشكلات نفسها صهرت پنيلوپا وعجمت عودها وخلقت منها سيدة فاضلة وملكة حازمة فبقيت وفية لزوجها ثابتة على عهدها ، ولما حاول العشاق إغراءها ، بالترغيب أو بالتخويف ، قاومتهم مقاومة عنيفة بالتسويف والخداع وزادها النضال معهم تمسكا بكرامتها ومحافظة على مكانتها ، فقامت فى غياب الملك بدورها خير قيام ، سيطرت على القصر ولم تتخل عن شىء من سلطتها لأى من العشاق ، لأنها كانت قوية الشخصية ولأنها كانت تؤمن إيمانا شديداً بأن بيت الزوجية هو كل شىء فى حياتها يجب أن تبقى فيه وتحافظ على كيانه لأنها رشفت فيه كئوس الحب مع حبيبها ولأنها تسترجع فيه كل ذكرياتها . فكيف ترضى به بديلا : « إنه جميل للغاية ، مملوء بمباهج الحياة وطبيعتها ستذكره دائما ولو فى الأحلام » . لقد قررت ألا تتركه برغبتها ونجحت فى تنفيذ قرارها بفضل ما كانت عليه من دهاء وبعد نظر وهما أشد صفاتها وضوحاً ، قد تضيق بهما أحيانا عندما

---

(١) كانت تسليتها المفضله وكانت تعتنى بها عناية شديدة ، الأوديسا : ١٩ : ٥٣٧ .

ينقلبان إلى حذر شديد وتشكك مخيف . وأقوى دليل على ذلك موقفها من زوجها بعد عودته ، فبعد أن قضى على أعدائه وأكدت لها الخادمة أنه أودوسيوس ، تشككت پنيلوپا فى كلامها وأرادت أن تمتحن الغريب وتتعرف عليه بنفسها ، فثار لذلك إبنها ووصفها بقسوة القلب وتحجرة . [1] ولكنه كان مبالغا فيما ذهب إليه لأنها ما كادت تتأكد من وجود أودوسيوس أمامها حتى انفجرت باكية . وعانقته عناقا طويلا وطلبت إليه الصفح عن إحجامها وجمودها وقالت : « لا تغضب منى ، يا أودوسيوس ؟ لقد كتب علينا البؤس عندما فرقتنا الآلهة وضنت علينا بالسعادة والهناء وحرمتنا أن نعيش معا حتى نبلغ الكبر ، لا تغضب منى ولا تلمنى لأننى لم أعانقك عند رؤيتك ، فقلبى كان يخاف دائما خداع المنافقين ، أما الآن فقد إطمأن إلى أدلتك التى لا جدال فيها » . [2]

لم تكن إذن قاسية القلب ولكنها كانت تغالى فى الحذر خوفا من الشباك التى كانت تنصب حولها ، يضاف إلى ذلك أن حبها لزوجها وعطفها على إبنها وإكرامها لوصيفاتها وتشجيعها للشحاذ الغريب يدل على رقة عواطفها ونبل مشاعرها .

ومع أن هوميروس لم يحدثنا عن دلالها وجمالها إلا أننا نفهم من إشاراته العابرة أنها كانت « خمرية اللون ، ممشوقة القد ، جذابة خفيفة الروح ، رقيقة اللفظ فتنت العشاق وجعلتهم يتفانون فى خطب ودها ويتسابقون إلى الزواج منها ، ولكنها خيبت ظنهم لأنها كانت تحب زوجها الذى انتظرته عشرين عاما أو يزيد ، فصارت مثلا للحب والوفاء ..

تلك نماذج من أبطال هوميروس ترينا أنهم كانوا أشخاصاً حقيقيين ، يرتبطون

---

(١) الأوديسا : ٢٣ : ٩٧ .

(٢) الأوديسا : ٢٣ : ١٥٣ وما بعده .

بالحياة ارتباطاً وثيقاً ، يتصفون بصفات البشر ويشعرون بمشاعرهم ، كرماء يراعون حقوق الضيافة ويقدسونها حتى مع أعدائهم[١] . يتميزون فى الإلياذه بالقسوة والغلظة خاصة مع نسائهم فنراهم لا يحترمون وجودهن ولا يعترفون بحقوقهن ، يحدون من حريتهن ويفرضون عليهن الحجاب ويعتبروهن ربات بيوت خلقن لخدمة الرجال والأبناء ، ولكن الأيام أثبتت خطأهم واضطرتهم إلى تغيير آرائهم . فنجدهم فى الأوديسا يحترمون المرأة ويحسنون معاملتها .

ولقد امتازت نساء هوميروس — حتى هلينا — بصدق العواطف ونبل المشاعر ، فكلهن مخلصات محبات لرجالهن ، متفانيات فى حب أولادهن ، مؤمنات بحقوق الزوجية ، بعكس الأبطال الذين كانوا يميلون إلى تعدد الزوجات ويفاخرون بكثرة الأبناء .

وكان هؤلاء الأبطال عاطفيين فى أغلب تصرفاتهم ، لذا كان من السهل استثارتهم ومن السهل استرضاؤهم ، إذا غضبوا تبادلوا الشتائم المقذعة والألفاظ اللاذعه ، فأعظمهم شأنا ينساق وراء هواه ويفقد صوابه ويثور فى وجه أجامنون ويسبه ويصفه « بأنه كلب دنىء ، ووغد صفيق » ؛ وإذا اعتدى عليهم معتد فويل له من الانتقام الشديد . ولقد رأيت من قبل كيف تجرد اخيليوس من إنسانيته ، ونكل بجثة عدوه وأمر الجنود بركلها ، ولولا خوفه من غضب الآلهه لرماها « للكلاب تمزقها وتنهش أحشاءها » .

ولكن هؤلاء العاطفيين كانوا يعرفون أن تحكيم العقل أفضل وأن كلمته أقوى لذا كانوا يلجئون إليه ليعيد إلى نفوسهم الهدوء والطمأنينة ويبعث فى قلوبهم الاعتدال والاتزان ، فكثيراً ما يمتدحون الرقه والمرونة

---

(١) الإلياذة : ٦ : ١١٩ — ٢٣٦ .

ويكرهون الجمود والصلابة [١] ويعترفون بأن خير الأبطال من يسيطر على نفسه ولا يخضع لأهوائه [٢] . وأن احترام العدو والعطف عليه دليل على الأمانة والاستقامة [٣] وأن الغدر والخيانة يتنافيان مع الشرف والشهامة .

هذه الصفات وتلك التصرفات تشهد بأنهم لا يمتون إلى الآلهة بصلة ولا يختلفون عن الناس فى شىء وكيف يختلفون عنهم « وهم يخافون بطش القدر ويستسلمون لقضائه ويشكون بؤس الحياة ويخافون من الموت » .

---

(١) الإلياذة : ١٩ : ٢٩٥ ؛ ٢٣ : ٥٥٥ .

(٢) الإلياذة : ٩ : ٤٩٧ ؛ ١٥ : ٢٠٣ .

(٣) الإلياذة : ٢٢ : ١١١ ؛ ٢٤ : ٤٥٢ .